الأمر ، فما كان من الشيخ إلا أن غادر القاهرة تاركاً منصب القضـــاء ، فلم يكن من أولئك اللذين يحسبون للمنصب حساباً ، وإنما يقبلون المنصب حسبة لوجه الله تعالى يصلحون من خلاله ما أفسده غيرهم .

عزله عن القضاء .

يقول **السبكي** : " ثم عزل نفسه عن الحكم ــ أي القضاء ــ فتلطف مـــع السلطان في رده إليه ، فباشره مدة ثم عزل نفسه مرة ثانية ، وتلطف مـع السلطان في إمضاء عزله بنفسه فأمضاه ." (٣٣)

وهذا يوضح مدى ما كان يتمتع به الشيخ من مكانة لدى سلاطين عصـره ــ حتى وإن اختلفوا معه ــ فقد قبل السلطان استقالة الشيخ من القضـــاء كارهاً ، يقول **الكتبى** : " وعزل نفسه عن القضـــاء فعظـم ذلـك علـى السلطان " (٣٤)

وقد ضمَّن الشيخُ كتابه (**قواعد الأحكام**) الكثير من الأحكام والأدب فـــي مجال القضاء ، يقول الشيخ عن أهمية منصب القضاء : " وأمـــا نصـــب القضاة على اختلافهم في الأحكام فيجوز ؛ لأن مصالح القضاء خاصـــة ومصالح الخلافة عامة ، ويتعذر نصب قاضي واحـــد لجميـــع النـــاس ، ولا شك أن نصب القضاة والولاة من الوسائل إلى جلب المصلحة العامـــة والخاصة ." (٣٥)

ثم يوضح شيخنا ما يجب على القاضي من التسوية بيـــن المتخـــاصمين تجنباً لئلا يوغر الصدور ، فإذا اختلت معاملة القاضي بين الخصوم كان الأقل معاملة حانقاً وحاقداً على أخيه الذي ميزه القاضي عليه ."

---

(٣٣) طبقات الشافعية ٨٧/٥ .
(٣٤) فوات الوفيات ١٩٤/٢ .
(٣٥) قواعد الأحكام ٥٨/١ .

ويقول : " والعدالة شرط في كل ولاية ؛ لتكون العدالة وازعة عن التقصير في جلب المصالح ودرء المفاسد ." (٣٦)

ولعل هذا يوضح جانباً من حياة شيخنا وأسلوبه في القضاء.

الشيخ الإمام الخطيب .

مارس الشيخ الخطابة باعتبارها أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله ، داوم عليها رسولناﷺ منذ فجر الدعوة وإلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، وكان شيخنا عز الدين خطيباً بالجامع الأموي بدمشق.

يقول المقدسي : " وفي العشر الأخير من ربيع الأول سنة ٦٣٧ هـ تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالإمامة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين بن عبد السلام مفتي الشام آنذاك ." (٣٧)

كانت الخطابة في الجامع الأموي لا يتولاها إلا كبار العلماء ، فهو المسجد الجامع ، وقد حول شيخنا هذا المسجد إلى مركز إشعاع ديني وفكري واجتماعي ، واتخذ الشيخ من منبره مذياعاً ينطق بكلمة الحق مهما كلفه ذلك من أذى السلاطين والأمراء .

ظل شيخنا خطيباً للمسجد الأموي قرابة عام ، ثم حدث صدام بينه وبين السلطان إسماعيل سلطان دمشق ، فعزله عن الخطابة ، فلقد مالأ هذا السلطان الأعداء وخان البلاد وسلم أجزاء منها للصليبيين ، فأفتى شيخنا بخيانته من على المنبر وفضح أمره أمام جموع المصليين الهادرة ، ولم يملك السلطان سوى عزله.

---

(٣٦) المرجع السابق .

(٣٧) الذيل على الروضتين للمقدسي ص١٧٠ .

وقد حارب الشيخ من على منبر الجامع الأموي كثيراً من البدع والفتن التي كانت سائدة في عصره ، وكان يقول : " **طوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن** ".

وإلى جانب ذلك حارب شيخنا بعض البدع التي كانت سائدة لدى **خطباء المساجد** في عصره ، فقد كان الخطيب منهم يحرص على لبس الثوب الأسود قبل صعوده المنبر ، وكان يدق السيف بيده ، ويتكلف في خطبته بسجع مقيت تمجه الأذواق السليمة.

يقول **الكتبى** : " فأزال كثيراً من بدع الخطباء ، ولم يلبس سواداً ولم يدق سيفاً ، ولم يسجع خطبته فكان يقولها مسترسلا . " (٣٨)

ولما رحل الشيخ إلى القاهرة ولاه سلطانها **نجم الدين أيوب** الخطابة في **مسجد عمرو بن العاص** ــ أول مساجد مصر وأشهرها بمائل في عظمته الجامع الأموي بدمشق ــ وظل شيخنا خطيباً لهذا المسجد إلى أن عزل نفسه عن القضاء فعزله السلطان عن الخطابة.

ويرجع السبب في ذلك بعض الوشاة اللذين ذهبوا إلى السلطان قائلين له : إعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل مع سلطان دمشق" (٣٩)

بعد عزل الشيخ عن الخطابة والقضاء لم يبق له سوى التدريس والإفتاء ، وقد ظل يمارسها إلى أن وافته المنية رحمه الله .

---

(٣٨) فوات الوفيات ٢/١٩٥ .
(٣٩) المصدر السابق والصفحة .

الشيخ عز الدين المفتي .

الإفتاء مسئولية جثيمة لا يتحملها إلا من كان أهلاً لها ، ومن أهم شروط المفتي أن يكون فقيهاً عالماً بأحكام الشريعة ومقاصدها ، ينطق الحق ويفتي الناس بما أنزل الله ﷻ وأفتى به رسوله ﷺ ، يجتهد فيما لا نص فيه ، فإن أخطأ رجع عن فتواه. لا ينساق لأهواء النفس ولا يتحيز لقناعة شخصية ، ولا يتعصب لمذهب بعينه ، وعليه أن يحذر الهوى في فتواه ، وقبل ذلك كله لابد أن يكون ورعاً تقياً يخشى الله ﷻ ولا تأخذه في الحق لومة لائم.

وقد مارس شيخنا عز الدين بن عبد السلام الإفتاء في مصر والشام ، يقول الذهبي : " وله الفتاوى السديدة ." (٤٠)

ويقول المقدسي : "وكان يُدعى مفتي الشام ." (٤١)

كان شيخنا يتحرى الدقة في فتاويه بعد أن اكتملت له صفات المفتي ، وتوافرت له شروطه ، ومن ثم أقبل عليه الناس من مصر والشام وغيرهما ليفتيهم في أمور دينهم ، وإذا استعرضنا أهم الفتاوى لشيخنا لوجدناها دليلاً صادقاً على نزاهة الشيخ في فتاويه وحرصه على تحرى الصواب ، والتصدي لمشكلات المجتمع في عصره ، يجتهد فيها ويحاول جاهداً الوصول إلى ما يروي ظمأ الباحث عن الحقيقة في أمر شرعي يريد معرفة حكمه ، أو قضية فرضت نفسها ولم يكن لها نص شرعي ، ولا غرو فقد كان شيخنا من كبار مجتهدي عصره ، وللشيخ كتاب يضم مجموعة من الفتاوى تعرف باسم (**الفتاوى الموصلية**).

---

(٤٠) البداية والنهاية ١٣ /٢٣٥ .
(٤١) الذيل على الروضتين ص١٧٠ .

ومن الفتاوى التي اشتهر بها شيخنا فتواه بيع المماليك ، والفتوى التي أصدرها بحق سلطان دمشق وهي خيانة البلاد ، وفتواه الشهيرة ضد وزير الدولة... إلخ.

وكان من الطبيعي أن تكون تلك الفتاوى مصدر قلق لشيخنا وباعثاً على غضب سلاطين البلاد عليه وتصديهم لفتاويه ، وهذا ما حدث بالفعل ، لكن شيخنا كان يصر على ما أفتى به مهما لاقى في سبيله من أذى ، أو حتى تَرْك الإفتاء.

كان شيخنا موضع إجلال وتقدير من علماء عصره عرفوه بسعة أفقه وغزارة علمه وجرأته في الحق ، يدلنا على ذلك ما رواه صاحب طبقات الشافعية يقول عن الشيخ : " ولما استقر مقامه بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها **عبد العظيم المنذري** ، وأمتنع عن الفتيا ، وقال : كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه ." (٤٢)

لقد امتنع **الحافظ المنذري** عن الفتوى تكريماً للشيخ واعترافاً بسعة علمه ومدى إلمامه بأسرار الشريعة وإحاطته بأحكامها.

هذا الموقف من **الحافظ المنذري** يستوجب من الدعاة إلى الله في عصرنا الحاضر أن يستلهموا منه الدروس والعبر فلقد تنازل **الحافظ المنذري** عن الفتوى لشيخنا عز الدين لم يتملكه الغرور ولم تستبد به الأنانية ، كان في وسعه أن يظل في الإفتاء مع وجود الشيخ ، فما كان وجوده يضره في شيء ــ ولا سيما وهو مفتي الديار المصرية آنذاك ــ لكنه أدرك جيداً أن

(٤٢) طبقات الشافعية ٥/ ١٠٥.

الشيخ عز الدين يفوقه علماً فتنازل له عن الفتيا ، وهو موقف يدل على ورع الشيخ المنذري وإدراكه أن الإفتاء لم يكن مجرد منصب فحسب وإنما هو أمانة ومسئولية يتحمل أعبائها من كان أهلاً لها.

كان شيخنا يفتي الناس في القاهرة بعد أن تنازل له المنذري ، وقد أقبل عليه الناس من كل مكان يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، ولا غرو فقد كان شيخنا يملك عقلاً حصيفاً جعله من أبرز مجتهدي عصره.

ويجدر بنا أن نذكر للشيخ موقفاً قد لا يتكرر مع غيره إلا نادراً ، ذلك أن طبيعة النفس الإنسانية تأبى الخجل ولا تتعرف كثيراً بالخطأ ، ولا سيما أمام الناس بعد أن يبلغ صاحبها شأواً كبيراً وتصبح له مكانة عالية بينهم.

فمنْ منا يملك الجرأة على إصدار فتوى ثم يظهر له الخطأ فيها فيرسل منادياً يتجول في الشوارع ليعلن على الملأ من الناس أن شيخهم الذي أفتاهم بكذا.. رجع عن فتواه لأنه أخطأ ويريد إبلاغ الجميع بذلك ؟

إنها بلا شك جرأة في الحق وشجاعة إيمانية حولت كبرياء النفس إلى تواضع وخشيته من الله ﷻ ، لقد فعل الشيخ ذلك ، لم يأبه لأن تهتز صورته أمام الناس ، فهو لا يخشى الناس وإنما يخشى الله ﷻ .

لقد حارب شيخنا غرور النفس وقتل كبرياءها ، فما هو إلا بشر يخطئ ويصيب ، ومَنْ أدرك خطأه رجع عنه خاصة في إفتاء الناس وإرشادهم.

يقول السبكي : " إن الشيخ عز الدين أفتى مرة بشيء ، ثم ظهر له أنه خطأ فنادى في مصر مَنْ أفتى له فلان بكذا فلا يعمل خطأ " (٤٣)

---

(٤٣) طبقات الشافعية ٥/١٠٧ .

الشيخ المعلم.

عندما برع شيخنا في العلم وتمكن فيه وحصّل منه ما يؤهله لنشره بدأ يمارس التدريس لطلاب العلم ، فاقبلوا عليه من هنا وهناك ينهلون من علمه ويفيدون من معارفه واجتهاداته ، وقد مارس شيخنا التدريس في الزاوية الغزالية وذلك بصفة رسمية من **الملك الكامل** سنة ٦٣٥هـ وظل بها إلى أن جاء **الأشرف** حاكماً على دمشق وكانت هناك خلافات بين الشيخ وبين الأشرف ، ومن ثم عزل الأشرف شيخنا عن التدريس ، وظل الشيخ معزولاً طيلة حكمه ، ولما جاء **الملك الكامل** واستولى على دمشق ــ وكان يحب الشيخ ويعظمه ــ أسند إليه وظيفة التدريس مرة أخرى في المدرسة الغزالية .

وكان الأشرف على حنق وموجدة من هذا الموقف ، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ؛ لأن دمشق كلها كانت في قبضة الملك الكامل.(٤٤)

ظل الشيخ في دمشق يمارس التدريس إلى أن هاجر إلى القاهرة ، فقصده الطلبة من الأفاق. وكان الشيخ معهم مثالاً للعالم العامل والموجه السديد. اتسم برحابة الصدر ورجاحة العقل وسعة الأفق وحسن الخلق ، إلى جانب غزارة العلم ، وقد مارس التدريس لطلابه في المدرسة الصالحية بالقاهرة بأمر السلطان أيوب الذي أفتى شيخنا ببيع المماليك في عهده ، وسبب له العديد من المشاكل ، ومع ذلك كله أغفل هذه المواقف ، أو ربما تناساها في سبيل بقاء الشيخ مع طلاب العلم ، هذا الموقف من جانب السلطان أيوب يدل على سعة أفقه ، وبالغ تقديره لشيخنا واعترافه بعلمه ، وإدراكه بأن تدريس شيخنا في المدرسة التي بناها يمثل مفخرة للسلطان يتباهى بها على أقرانه ، فالمدارس لا ترتقي بعظمة البناء وإنما بعظمة من يُدَرسُون فيها.

---

(٤٤) طبقات الشافعية ٥/١٠٢ .

يقول **السبكي** : " ثم ولاه ــ أي السلطان أيوب ــ التدريس بالمدرسة الصالحية . " (٤٥)

وكان الشيخ إلى جانب تدريسه للفقه الشافعي يلقى دروس التفسير أيضاً يقول **ابن العماد الحنبلي** : " وأخذ التفسير في دروسه ، وهو أول من أخذه في الدروس ." (٤٦)

وقد ظل الشيخ يمارس التدريس في المدرسة الصالحية إلى أن وافته المنية في عهد **السلطان بيبرس.**

وقبل وفاة شيخنا أصابه المرض فذهب إليه **السلطان بيبرس** وطلب منه أن يعين في منصبه منْ يريد من أولاده ، فرفض شيخنا طلب السلطان ولعله تمثل قول سيدنا **عمر بن الخطاب** ﷺ حينما طُلب منه أن يخلّفه ولده **عبد الله بن عمر** ﷺ فقال : حسب آل الخطاب أن يحاسب منهم غير عمر.

لقد درك أدرك شيخنا أن منصب التدريس لا يتصدى له إلا منْ كان جديراً به ولم ير في أولاده من يستحق هذا المنصب ، فالمنصب لا يُورث وإنما يسند إلى منْ يستحقه ، ولا مجاملة على حساب العلم ، ومن هنا اختار شيخنا تلميذه **القاضي تاج الدين** فهو في نظر الشيخ جدير بالمنصب ، يقول **الكتبي** : " وأرسل له السلطان لما مرض ، وقال له: عين لمنصبك منْ تريد من أولادك ، فقال : ما فيهم من يصلح وهذه المدرسة تصلح للقاضي تاج الدين "(٤٧)

رحم الله شيخنا الذي لم يجامل أحداً على حساب العلم ولو كان ولده!!!

---

(٤٥) المصدر السابق .
(٤٦) شذرات الذهب ٣٠٢/٥ .
(٤٧) فوات الوفيات ١٩٥/٢ .

مواقف حاسمة في حياته .

(١) محنته مع الحنابلة .

أُبتلى سلطان العلماء بتلك المحنة القاسية فكانت امتحاناً لصموده واختباراً لشجاعته وثباته على المبدأ .

حدثت تلك المحنة الأليمة سنة ٦٣٢هـ في عصر **السلطان الأشرف** ، فقد ظهر في عصره جماعة من المبتدعة انسبت إلى **الإمام أحمد بن حنبل** ـ وهو منهم ـ براء كان لهذه الجماعة آراء في العقيدة ، منها أن لله سبحانه له حرف وصوت في القرآن ، وهي أراء ليست نتاج فكرهم وإنما استمدوا أصولها من المعتزلة وتزيدوا فيها وبدلوا فصارت ممجوجة فاسدة ، وليس المقام هنا يتسع لذكر هذه الآراء كاملة ومناقشتها ، ما يهمنا هو أن هذه الجماعة أرادت أن تفرض على عامة الناس آراءها ، ولكن كيف يتحقق لها ذلك وهي تعلم جيداً مدى حب سلطان البلاد للشيخ عز الدين وتقديره له ، وتدرك أيضاً أن شيخنا قد فضح هذه الفرقة وبيَّن فساد معتقداتها ، وأن السواد الأعظم من الناس يسير خلف فتاوى عز الدين شيخهم ، ففكرت تلك الجماعة وهداها تفكيرها إلى الأسلوب الذي استخدمته المعتزلة في عصر **المأمون** واستطاعت الاستيلاء على عقله وعُرفت هذه الفتنة (بفتنة خلق القرآن) وهي الفتنة التي حارب فيها **المأمون الإمام أحمد** حينما رفض آراء المعتزلة واقتنع بها المأمون ، وفي سبيل ذلك سجن الإمام أحمد وعذبه وشهر به ، وظل الإمام العظيم ثابتاً على عقيدته إلى أن توفي رحمه الله .

قالت الجماعة ـ ما أشبه الليلة البارحة ـ إن السلطان يمكن إقناعه وعز الدين بن عبد السلام سيواجه تماماً ما واجهه **الإمام أحمد بن حنبل** ، إن

الاستيلاء على الحاكم جدير بنشر تلك المعتقدات والدفاع عنها ، وبالفعل كان لهم ما أرادوا فلقد اقتنع **السلطان الأشرف** بآرائهم وصار يدافع عنها ويقف أمام مخالفيها.

يقول **السبكي:** " وقد اختلطت آراؤهم بفضل حيلهم ولباقتهم بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن مخالف ذلك كافر حلال الدم ." (٤٨)

لقد أباح الأشرف لهؤلاء ضرب وتعذيب كل مَنْ يخالف أمرهم ، واشتعلت أوار الفتنة بين الناس بعد أن اتهموا شيخنا عز الدين بأنه أنشأ لنفسه مذهباً خامساً ، وانقسم الناس إلى فريقين : فريق يؤيد الشيخ ، وفريق يؤيد هؤلاء الحنابلة.

ويروي لنا المؤرخون أن **السلطان الأشرف** تبادل مع شيخنا عز الدين رسائل عديدة في شأن آراء الحنابلة ، وموقف الشيخ منها ، هذه الرسائل كانت نهايتها شروطاً من السلطان على شيخنا أن يلتزم بها ، وهي أن لا يفتي وأن لا يجتمع بأحد وإن يلزم بيته لا يغادره.

كانت هذه الشروط قاسية على نفس الشيخ فهو لن يتحمل أبداً الإقامة في منزله بعيداً عن الناس. ولكن ماذا يفعل ؟ بل وماذا يملك سوى الرضوخ والتسليم لأمر السلطان ، مكث الشيخ في بيته أياماً ثلاثة ، كان في مقدوره أن يؤلب الناس على السلطان وأن يتظاهر الجميع ضده تضامناً مع شيخهم ، لكن الشيخ بحصافة عقله لم يشأ لفتنه يشتعل أوارها بين الجميع وفيها من الشرور ما يفوق عزل الشيخ عن الإفتاء ولزومه بيته ، فأطاع أمر السلطان رغم قسوته على نفسه.

---

(٤٨) طبقات الشافعية ٨٧/٥ ، ٥٠٩ .

بعد أيام ثلاثة قيض الله ﷻ للشيخ عالماً من علماء المسلمين هو **الشيخ جمال الدين الحصيري** شيخ المذهب الحنفي ، فقد آلمه ما حدث لشيخنا دون إثم اقترفه ، فذهب إلى السلطان ، وحينما أقبل عليه قدم له طعاماً وناوله للشيخ بيده فرفض **الشيخ الحصيري** ذلك وقال للسلطان : ما جئت إلى طعامك أو شرابك ، فقال له السلطان : يأمر الشيخ ونحن ننفذ أمره. فقال الشيخ له : ما الذي بينك وبين الشيخ عز الدين هذا رجل لو كان في الهند أو الصين أو في أقصى الدنيا لوجب على السلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتعم بركته عليه وعلى بلاده ، ثم ناقش الشيخُ السلطانَ فيما حدث وبيّن له رأيه في مبتدعه الحنابلة قائلاً :اعتقاد الشيخ عز الدين هو اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين ، وكل ما فيها صحيح ، ومن خالف ما فيها وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار .

حينئذ أدرك السلطان الحقيقة وقال **للشيخ الحصيرى** مبدياً ندمه على ما حدث في حق الشيخ عز الدين قائلاً : ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الأمر ، والله لأجعله أغنى العلماء ثم أرسل إلى شيخنا عز الدين يسترضيه.

وهكذا انتهت المحنة الأليمة بانتصار شيخنا على خصومه ، وإذا كان **السلطان الأشرف** قد منع شيخنا من الحديث في العقيدة ، فإن **الملك الكامل** أمر شيخنا بأن يعود مرة أخرى إلى الحديث عن العقيدة وبيان فساد آراء المبتدعة ، بل إنه أنكر على الأشرف موقفه من الشيخ عز الدين وقال له : كان عليك أن تشنق عشرين من هؤلاء المبتدعة ليرتدع بذلك غيرهم وأن تمكن الشيخ من بيان فساد عقيدتهم وبذلك طويت صفحة

أليمة من حياة شيخنا أبتلى فيها بفتنة كادت أن تودي بحياته ، لكنه ظل صامداً وصابراً ، لا يعالج الفتنة بأكبر منها ، ولكنه عالجها بحكمة وبصيرة فخمدت نيرانها وأدرت الناس فسادها ." [٤٩]

(٢) موقفه من خيانة سلطان دمشق .

في عام سنة ٦٤٠هـ استطاع **نجم الدين أيوب** ـ بعد وفاة أبيه الكامل ـ انتزاع الملك من أخيه العادل والاستيلاء على مصر.

وبمجرد أن استتب له حكم مصر كان يتطلع دوماً إلى الاستيلاء على الشام من الصالح إسماعيل ، ذلك أن بلاد الشام هي ملك لأبيه الكامل. اغتصبها السلطان إسماعيل ولابد من ضمها.

وقد حدثت بسبب ذلك خصومات عديدة بين الصالح أيوب والصالح إسماعيل كانت أحوالا البلاد آنذاك تفرض على الصالح إسماعيل التفاوض مع الصالح أيوب وحل المشكلات بينهما بالطرق السلمية.

لكن تفكيره العقيم هداه إلى طريقة أخرى هي التعاون مع الصليبيين أعداء البلاد وممالئتهم حتى إذا ما داهمه الخطر من السلطان أيوب وقف هؤلاء الأعداء بجانبه.

وبالفعل نفذ إسماعيل خطته فاتفق مع الأعداء سراً على التحالف ، وكانت أبرز مظاهره تسليم الصليبيين قلعة شقيق وإشراكهم معه في حكم طبرية وصيدا وتنازل لهم عن قلعة صفد وسائر بلاد الساحل ، ولم يقتصر على ذلك بل إذن للصليبيين في دخول دمشق وترك لهم حرية شراء السلاح من أهلها.

حينذاك اجتاحت دمشق ثورة عارمة وخرج الآلاف من أبناء الشعب إلى أكبر المساجد ينتظرون رأي العلماء في تلك الخيانة التي قام بها السلطان إسماعيل .

([٤٩]) بتصرف من طبقات الشافعية ٥/١٠٠ .

وكان شيخنا عز الدين يشارك مجتمعه آلامه وأحزانه ، فاقبل على تلك الجموع الهادرة بالمسجد ليعلن رأيه في هذه المصيبة التي حاقت بالبلاد. وجه الشيخ عز الدين حديثه إلى شعب دمشق قائلاً : هل تطيعوني على ما في هذا المصحف ؟ قالوا جميعاً : نعم . قال الشيخ : إني أحكم بخيانة السلطان وأفتي بعصيانه ومخالفة أمره ، إنه يحرم عليكم مبايعة هؤلاء الفرنج . وأخذ يكرر توجيه الخيانة إلى إسماعيل ثم حذر الناس بقوله : أيما مسلم باع للعدو سلاحاً أو أعان على بيعة لهم فقد خان الله ورسوله وخان المسلمين ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وعقب الصلاة صار الناس يتحدثون عن الشيخ وما سيلقاه من أذى على يد السلطان ، وكان الحزن يسيطر عليهم بعد أن أدركوا أنهم لن يسمعوا شيخهم خطيباً مرة أخرى ، وهذه أدنى عقوبة له ، طار الوشاة إلى إسماعيل ــ وكان خارج البلاد يتفاوض مع الأعداء ــ فأبلغوه بما حدث . فتملكته الحيرة ، ماذا يفعل مع هذا الشيخ الذي فضح أمره على المنبر وحرض الناس على عصيانه ؟ هل ينكل به أو يطرده من البلاد ؟ أو يودعه السجن ؟

لو حدث أمر من هذا فسيكون سبباً في ثورة عارمة من شعب دمشق لا يستطيع إخمادها ، وانتهي به الأمر إلى إصدار مرسوم بإعفاء الشيخ من الفتيا وإبعاده عن الخطابة ، واعتقاله هو والشيخ ابن الحاجب المالكي الذي تضامن معه في التشهير بخيانة السلطان." (٥٠)

---

(٥٠) بتصرف يسير من طبقات الشافعية ٥/١٠٠ .

يقول **المقريزي** : " ولما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما وألزم ابن عبد السلام بملازمته داره ، وأن لا يفتي ، ولا يجتمع بأحد ، فاستأذن في صلاة الجمعة وإحضار طبيب عند الضرورة فأذن له في ذلك ." [٥١]

ظل الشيخ في بيته صامداً صابراً لم يهادن السلطان أو يعتذر له ، وأنى له ذلك مع سلطان جائر خائن سلم بلاده للصليبيين ؟

لكن إلى متى يظل الشيخ هكذا معطلاً عن أداء رسالته بعيداً عن عامة الناس الذين طالما شاركهم آلامهم ، فكان الحل لدى الشيخ الهجرة من دمشق ، فأرسل إلى السلطان يطلب منه الموافقة ، فوافق له على الرحيل، لكنه سرعان ما ندم على ذلك ، وفي الطريق استطاع اللحاق بالشيخ وأمر باعتقاله في خيمة ، ثم أفرج عنه وهاجر شيخنا إلى القاهرة ، وفيها مارس الشيخ رسالته وواصل دعوته إلى أن توفي رحمه الله.

(٣) موقفه من وزير الدولة .

من المواقف الحاسمة شيخنا عز الدين موقفه من وزير الدولة والذي يمثل الجرأة في الحق والغيرة على دين الله تعالى.

ونترك المقريزي يصور لنا ما حدث ، يقول :" بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (وزير الملك الصالح) نجم الدين أيوب بناء بأمر مخدومه على سطح مسجد مصر ، وجعل فيه (طبلخانة) ــ قاعة للهو والموسيقى ــ فأنكر ذلك قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام ومضى بنفسه وأولاده حتى هدم البنيان ونقل ما على السطح ، ثم أسقط شهادة الوزير وعزل نفسه عن القضاء ." [٥٢]

([٥١]) السلوك للمقريزي ٣١٢/١ .
([٥٢]) السلوك للمقريزي ٣١٢/١ .

ولما علم وزير الدولة بما حدث غضب شديداً لكن الشيخ لم يأبه لغضبه فقد أصدر حكمه عليه باعتباره قاضى القضاة آنذاك ثم عقب ذلك عزل نفسه عن القضاء وهو يدرك أن السلطان سيعزله لا محالة ، إذ كيف شهادة وزير دولته ؟

لقد رفض شيخنا أن يدنس هذا الوزير بيتاً من بيوت الله بوضع آلات اللهو فوق سطحه إرضاء لنزوات طائشة ؛ لتنتهك بها حرمة المسجد ، وكان حكم الشيخ حاسماً فوزير الدولة أصبح فاقد الأهلية لا تقبل شهادته . وعلى الرغم من هذا الحكم الذي آلم السلطان وأغضبه فإنه حاول مع شيخنا أن يرجع عن استقالته لكن الشيخ أصر على ذلك فقبلها كارهاً. وهذا يدل على مدى تقدير السلطان أيوب لشيخنا واعترافه بفضله ونزاهته في القضاء[٥٣]

(٤) جهاده في سبيل الله .

جاهد الشيخ ــ رحمه الله ــ في سبيل الله جهاداً لا يقل أهمية عن المقاتل في الميدان ، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أجمع المؤرخون على ذلك ، يقول **السبكي** في طبقاته : " الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في زمانه" [٥٤]

ويقول **ابن العماد الحنبلي** " "هذا مع الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. " [٥٥]

ويقول **الكتبى** : " وكان أمّاراً بالمعروف نهاء عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم . " [٥٦]

---

(٥٣) طبقات الشافعية ٨٠/٥ .
(٥٤) المرجع السابق .
(٥٥) شذرات الذهب ٣٠٢/٥ .
(٥٦) فوات الوفيات ٢٩٥/٢ .

ويقول السيوطي : " فأقام بمصر أكثر من عشرين عاماً آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر . "[٥٧]

أقوال كثيرة متفق على حقيقة واحدة هي أن شيخنا كان من طراز فريد في الدعوة إلى الله تعالى ، يجاهد بقلمه ، وبلسانه وبيده حتى يزيل المنكر في عصر تعددت فيه ألوان المنكرات وساد الفساد بين الناس وكثرت الخلافات السياسية وغيرها.

ونسوق للقارئ الكريم بعض المواقف في هذا الصدد :

فهذا رجل يسمى علي الحريري كون لنفسه طائفة من الأتباع تسمى بطائفة الحريرية وهي طائفة نسبت نفسها إلى التصوف ــ وهو منها براء ــ كان شيخ هذه الطائفة يبيح التخلي عن الفرائض الدينية ، كالصلاة والصوم ، وقد اعتنق جهالاته الفاسدة جماعة من المنحرفين ، فحاربهم شيخنا عز الدين وفضحهم وبين للناس فساد آرائهم [٥٨]

ومن مواقف الشيخ في سبيل توحيد الصفوف وجمع الكلمة موقفه من السلطان الأشرف فقد حدثت عداوة بينه وبين أخيه الكامل أدت إلى أن يصوب الأشرف جيشه تجاه ملك أخيه الكامل وكانت البلاد آنذاك يتهددها خطر التتار ، فقام الشيخ في مجلس الأشراف وقال له ــ في جرأة وشجاعة ــ : الملك الكامل أخوك وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداد وهاهم التتار قد خاضوا بلاد المسلمين فهل يليق بك أن توجه جيشك إلى ملك أخيك لتضربه وتترك حزب أعداء المسلمين ، فاستجاب السلطان على الفور ووجه جيشه صوب التتار .

---

(٥٧) حسن المحاضرة ١٧٣/٢ .
(٥٨) بتصرف من طبقات الشافعية ٨٦/٥ .

ومن مواقفه أيضا أنه عندما أدرك أن خطر التتار أوشك أن يصيب البلاد أنشأ ديوناً كبيرا للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله وضم إليه عدداً من العلماء وخطباء المساجد ، وأخذ يلقنهم ما ينبغي أن يبلغوه للناس من على المنابر في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله وبيان جرائم التتار ؛ ليثيروا في نفوسهم الحمية لدين الله والدفاع عن البلاد ، وكان الشيخ لا يجيز أحدا من هؤلاء لأداء الخطبة إلا بعد حفظه سورتي الأنفال والتوبة عن ظهر قلب ، وغني عن البيان ما في هاتين السورتين من الحث على الجهاد وبيان فضله ومنزلته .

ومما يذكر لشيخنا في ميدان الجهاد موقفه من **قطز** ، ذلك أن **الملك الناصر** صاحب دمشق قد أرسل إلى **المنصور سلطان مصر** ــ وكان صغير السن ــ يطلب منه جيشا يصد به خطر التتار عنه ، فاغتنم قطز هذه الفرصة وعقد مجلساً دعا إليه الوزراء والعلماء وأهل الحل والعقد لاستعراض ما يحدق بالمجتمع من أخطار وما يجب على المسلمين حيالها، كان الجميع يدرك ضعف سلطان مصر آنذاك وعجزه عن مواجهة التتار ، حينذاك وقف الشيخ عز الدين أمام الحاضرين واقترح عليهم أن يلي الحكم قطز لصلاحه وتقواه ، فدهش الجميع من شجاعة الشيخ .[٥٩]

هذا هو شيخنا عز الدين لم يرض لنفسه أن يعيش في عزلة عن مجتمع وإنما شاركه أحداثه وعايش خطوبه وجاهد في سبيل نصرته ، بقلمه ولسانه ويده ، برأيه السديد ، وتوجيهاته المستنيرة رحمه الله.

---

(٥٩) طبقات الشافعية ٨٦/٥ .

(٥) موقف الشيخ من المماليك.

هاجر الشيخ من دمشق إلى القاهرة فوجد فيها متنفساً لدعوته وحرية يستطيع في ظلها أن يؤدى رسالته.

وقد أجمع المؤرخون على أن **سلطان مصر نجم الدين أيوب** قد أحسن استقبال الشيخ ، يقول **ابن العماد** : " فتوجه إلى مصر فتلقاه صاحب مصر الصالح أيوب وأكرمه وفوض إليه قضاء مصر . "(٦٠)

ويضيف **الكتبي** : "وبالغ في احترامه ." (٦١).

لقد أحسن السلطان أيوب استقبال شيخنا عز الدين ، ولم يكن يدور بخلده قط أن هذا الشيخ الذي قارب الستين من عمره سوف يبيع ممالكيه ومنهم نائبه وأمراؤه ، فهو شيخ هاجر من دمشق مضطراً ولا شك أنه سيعيش في القاهرة بعيداً عن الأحداث السياسية لينعم بالهدوء والسكينة ، ولو علم السلطان ما سيحدث من الشيخ لما سمح له بالبقاء في القاهرة يوماً واحداً.

عاش شيخنا في القاهرة وخالط أهلها فتعرف على عللهم ، وهذا هو شأنه في حياته سواء في القاهرة أو دمشق ، فالشيخ لا ينتمي لأرض بعينها فالانتماء هو للأمة الإسلامية على اختلاف مواقعها.

في القاهرة ظهرت للشيخ ملامح هذا المجتمع واضحة المعالم ، فسلطان البلاد هو صاحب الكلمة والنفوذ ، وكان ملكاً شديداً لا يجرؤ أحد على عصيان أمره ، وقد جمع حوله المماليك من الترك بصورة لم يُسبق إليها. فكان أكثر الأمراء منهم ، وقد اتخذهم السلطان عوناً له له بعد أن منحهم ثقة جعلت هؤلاء المماليك أصحاب نفوذ في البلاد ، ولفرط ثقته كان نائب السلطان واحداً منهم .

---

(٦٠) شذرات الذهب ٣٠١/٥ .
(٦١) فوات الوفيات ٢٩٥/٢ .

أما عامة الشعب فكان يئن تحت وطأة هذا الحكم الطبقي ، فالسلطان و مماليكه هم فقط أصحاب النفوذ ،الضرائب تُجبى لحسابهم والأراضي لا يملكها غيرهم والشعب مسخر لخدماتهم وأهوائهم ، وقد أصابته الفاقة وأنهكته الحروب الطاحنة.

كان الشيخ آنذاك يشغل منصب قاضى القضاة وهو منصب خطير يمثل أكبر منصب ديني في البلاد.

أدرك الشيخ ببصيرته المستنيرة وفكره الثاقب أن هؤلاء المماليك اللذين يسخرون الشعب كله لخدمتهم ويعيشون في بذخ بينما الشعب كله لا يجد ما يسد رمقه.

أدرك الشيخ أن هؤلاء المماليك اللذين طالما عانى الشعب من ظلمهم ، ما هم إلا عبيد أرقاء لم يصدر بحقهم عتق شرعي ، وهم بهذه الصفة ملك للدولة يجوز بينهم ، بل وتبطل ولايتهم وجميع العقود التي يباشرونها من بيع وشراء ونكاح.. الخ ، ولا بد من بيعهم وصرف أثمانهم في وجوه الخير ولما اطمأن الشيخ إلى ذلك أصدر فتواه الشهيرة بضرورة بيع المماليك ، وكان لهذه الفتوى أثرها البالغ في القاهرة ، فأفراد الشعب قد عمتهم الفرحة ولم يصدق واحد منهم أن هذا الأمر يمكن تحقيقه.

بل إن بعضهم أشفق على الشيخ واعتراه الحزن على مصيره ، بل وتهيأت النفوس لوداعه.. فهو سيرحل عن القاهرة حتما.!!

أما المماليك فقد أصابتهم الدهشة لحكم الشيخ عليهم وهو حكم ما كان بدون بخلدهم قط ، فهم أصحاب النفوذ والسلطان في البلاد ، ولكن ماذا يفعلون حيال هذا الأمر ؟

هرعوا إلى السلطان وأقنعوه بأن الشيخ قد تطاول عليهم وغداً سيتطاول على السلطان ، كان هذا كفيلاً بأن يثير غضب السلطان ويشعل في نفسه ثورة عارمة على الشيخ .

أرسل السلطان إلى شيخنا ليستطلع منه الأمر بنفسه علـــه يقنـــع الشـــيخ بالعدول عن حكمه ، وفي مجلس السلطان خاطب الشيخ قائلاً :

ما هذا الكلام الذي تقوله ، إنك بهذا تثير الفتنة وتفتح على الناس أبـــواب الشر ، فقال الشيخ : ألهذا طلبتني ؟ ثم سرعان ما غادر مجلس الســلطان قاصداً بيته عاقدا العزم على الرحيل من مصر تلك التـــي غـــدت تمامـــاً كدمشق في نظره.

يقول السبكي :" فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلتـــه حماراً أخر ومشى خلفهم قاصداً الشام فلم يصل نصف بريد إلا وقد لحقـه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار . "(٦٢)

لقد خرجت القاهرة عن بكرة أبيها تسير خلف هذا الشيخ العجوز الـــذي ناهز الستين آنذاك ، وقد حوله إيمانه إلى شاب قوى يؤهل نفسه للســـير على الأقدام وزاد راحلته صفاء القلب ونقاء النفس والثقة في الله وحده.

أي سبب دفع أهل القاهرة للخروج خلف الشيخ ؟

إن حبهم للشيخ وتقديرهم له جعلهم يحتجون على رحيله عنهم بأســـلوب عملي!!

طار الخبر إلى السلطان وكان من الطبيعي أن يفرح برحيل الشيخ ففيـــه نهاية لحكم سيورطه مع مماليكه ؟ بل وربما نائبه ، لكن الســـلطان فكـــر جيداً في الأمر بعد أن بلغه أن القاهرة كلها قد خرجت وراء الشيخ .

ماذا يبقى للسلطان ؟ الأمر إذن بلغ ذروة الخطورة ، لكـــن مـــاذا فعـــل السلطان ؟ يجيبنا السبكي : " فبلغ السلطان الخبر وقيل له : متـــى راح ــ أي الشيخ ــ ذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه واسترضاه وطيب قلبـــه

(٦٢) طبقات الشافعية ٨٤/٥ .

ورجع واتفق معه على أن ينادي على الأمراء ـ المماليك ـ بعد أن تعهد له أن ينفذ أوامره . "[٦٣]

أما المماليك فقد خيم عليهم الحزن بعد أن أدركوا أن اللحظة الحاسمة لبيعهم آتيه لا محالة .

كان نائب السلطان واحداً من هؤلاء المماليك ، فهل سيُعفي من البيع أم سيعامل مثل بقية المماليك ؟

يقول **السبكي** : " فأرسل نائب السلطان إلى الشيخ يسترضيه عدم بيعه ، لكن الشيخ أصر على رأيه أنه مملوك مثلهم . "[٦٤]

لقد ظن نائب السلطان أن الشيخ ممن تستهويه شهوات النفس أو يغويه المال. ولكن خاب ظنه !!

فالشيخ لا يغريه أي عرض من أعراض الدنيا..

ولما فشل النائب مع الشيخ فكر في قتله ، فهو المخرج الوحيد للتخلص منه فذهب إلى البيت معه جماعة من جنوده ، والسيف مسلول في يده وما أن وصل إلى بيت الشيخ حتى طرق الباب فسمع مَنْ في البيت طرقات عالية في هزيع الليل الأخير وظلمته الحالكة وسكون العميق ، أجل لقد اختلطت الظلمات ببعضها ظلمة الليل وظلمات الجهل والتعصب والأهواء والشهوات .

في هذا الموقف المشحون بالغضب تتحرك كوامن الشر داخل النفوس الضعيفة فتدفعها إلى الحماقة ، يساندها غرور القوة وبطش النفوذ.

سمع ولد الشيخ (عبد اللطيف) هذه الثلة التي أقبلت على باب بيته فأدرك أن خطراً يهدد والده ، وكان على علم بالأمور كلها ، خرج ليفتح الباب

---

(٦٣) المرجع السابق .
(٦٤) طبقات الشافعية ٨٦/٥ .

فإذا به أمام نائب السلطان ومن حوله جنوده والسيف مسلول في يده ، فارتعدت أوصال هذا الغلام وعاد إلى أبيه مسرعاً يخبره بما شاهده ويطلب منه الإذعان لنائب السلطان فراراً من سيفه ، لكن شيخنا رد على ولده قائلاً : **يا ولدي أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله .**

وخرج مسرعا لمقابله نائب السلطان ، يقول **السبكي** : " ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطان ، فحين وقع بصر الشيخ على النائب يَبِسَتْ يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعوا له وقال يا سيدي : خير أي شيء تفعل ؟! فقال الشيخ : أنادي عليكم وأبيكم . فقال النائب : ففيم تصرف ثمننا ؟ فقال الشيخ : في مصالح المسلمين ، قال النائب : مَنْ يقبضه ؟ قال الشيخ : أنا، فتم له ما أراد .

أجل لقد تم للشيخ ما أراده فهاهم المماليك يقبلون على الشيخ في ساحة البيع ، وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الخزي والذلة ، وقد التف الشعب كله حول ساحة البيع يشاهد عن كثب مصير هؤلاء وحُكم الشيخ فيهم ، لقد كسر الشيخ أنوفهم وأذل كبريائهم ، ولعل تلك الجموع الحاشدة التي كانت ترمق الحدث كانت في الوقت ذاته تسترجع ذكريات الأمس القريب ، وهي ذكريات أليمة تحمل في طياتها الظلم والاستبداد من هؤلاء وغيرهم .

نادى الشيخ على المماليك تلو الأخر ولم يبرح مكانه حتى باعهم جميعاً ورد أثمانهم إلى عامة الشعب ، فلم يبق منهم فقير أو مسكين .[٦٥]

هذه الحادثة المثيرة هي التي جعلت المؤرخين يُطلقون على شيخنا " بائع المماليك ".

---

(٦٥) المرجع السابق ٥/٨٤ .

وبعـــد .

فلقد حاولنا من خلال هذا البحث الوجيز التعريف بشيخنا عز الدين بـــن عبد السلام وإلقاء نظرة سريعة على حياتـــه ودعوتـــه إلـــى الله تعـــالى ونعترف بأننا لم نسبر أغوار هذه الشخصية الجليلة بالقدر الذي يكشـــف عن مكوناتها في هذا البحث راجين الله ﷻ أن يوفقنـــا لإعـــداد دراســـة مستفيضة عن شيخنا عز الدين بن عبد السلام إن كان في العمر بقية .

هذا وبالله التوفيق .

أ٠د٠ حسن عبد الحميد حسن .
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
وعميد الكلية .

أهم مراجع البحث .

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : المصادر والمراجع .

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) تاريخ علماء بغداد للسلمي .

(٣) تاريخ مصر لابن إياس .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي .

(٥) الخطط المقريزية للمقريزي .

(٦) الذيل على الروضتين للمقدسي .

(٧) السلوك للمقريزي .

(٨) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

(٩) طبقات الشافعية للسبكي .

(١٠) فوات الوفيات للكتبي .

(١١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام لعز الدين بن عبد السلام .

(١٢) الكامل لابن الأثير .

(١٣) مذكرات لشيخنا المرحوم البهي الخولى.

(١٤) مقدمة ابن خلدون .

(١٥) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ــ تقديم الإمام الأكبر المرحـــوم د٠عبد الحليم محمود .